النمو الحضري في المجتمع الجزائري وعلاقته بأنماط البناء.

د. مليكـــــة لبديـــــــــــري
جامعة الجزائر -2-

ملخص:

إنّ ظاهرة التحضر والنمو الحضري السريع وتخلف ديناميكية التسيير والتخطيط الحضري وعدم مواكبته للديناميكية السكانية (النمو الديمغرافي) والاجتماعية (النمو الاقتصادي) للوسط الحضري جعل مدينة الجزائر تعيش عدة مشكلات اجتماعية كأزمة السكن. وظهور الاحياء الفوضوية، أزمة البطالة، ضعف الخدمات وسوء توزيعها هذه المشاكل التي أصبحت كلها مصدرا للقلق، الإزعاج والخوف الدائم بالنسبة للمقيم بها بدلاً من الشعور بالاستقرار،الأمان والرّاحة، وبما أنّ الهدف من عرض هذه المشاكل التي تعاني منها مدينتنا في ظل التحضر يتمثل في البحث عن كيفية النهوض بها، نلفت الانتباه بالاستناد إلى ما استقيناه من خلال القراءات التي لها علاقة بقضايا التحضر والنمو الحضري قائلين:

إذا كانت عملية الإصلاح في أي مجتمع تبدأ في غالب الأحيان بتحديد المشاكل الموجودة فعلا والعمل على ترتيبها وتناولها حسب الأهمية والأولوية، يبقى إذن على المسؤولين معرفة نوعية التحديات التي يجب رفعها في هذا المجال والعمل على استيعاب سكان الأحياء، المدن والمقيمين بها بتوفير التجهيزات ومرافق الخدمات الضرورية وذلك للوصول بمدننا إلى المستوى المطلوب من الحياة الحضرية الفعالة من حيث التخطيط والتنظيم معاً والذي يستدعي ضرورة المتابعة العقلانية الراشدة لمسار النمو الحضري بمختلف أبعاده الاجتماعية.

Résume:

Le phénomène de l'urbanisation, le développement urbain accéléré, la mauvaise gestion de la planification urbaine et le manque de soutien de la dynamique populaire (croissance de la population) et sociale

(développement économique) a causé plusieurs problèmes sociaux à la ville d'Alger tels que la crise du logement, l'apparition des quartiers chaotiques, la crise du chômage et la mauvaise qualité des services. Ces problèmes sont devenus une source d'inquiétude et du manque de de sécurité et de confort pour les résidents permanents.

A cet effet, les autorités sont dans l'obligation de prendre en charge ces problèmes à travers l'accueille des habitants des quartiers, et la communication avec eux.

مقدمة:

إنّ المتتبع للمسار التاريخي للمجتمع البشري، يجد أن أهل الريف كان لهم الدور الكبير في تشيد حضارات وانهيار حضارات أخرى والشيء الذي مكنهم من ذلك هو طبيعة التنظيم الذي كان سائدا في الريف والقائم أساسا على النظام القبلي بحيث نجد أن للقبلة دورا هاما في مختلف جوانب الحياة الاجتماعية للجماعة خاصة من الناحية السياسية، الاقتصادية والتعميرية، وعليه، فالبحث في الجذور التاريخية لظاهرة التحضر ومسارها التطوري، يقودنا إلى الحديث عن السياسة والمدينة بالاستناد إلى ما خلفته لنا الحضارة اليونانية من كتابات حول موضوع السياسة والذي أجمع أغلب المهتمين به في القول بأنّ السياسة تعتبر ظاهرة اجتماعية ضرورية لحياة البشر حيث قال: "أرسطو: "الطبع يدفع الناس بغرائزهم إلى الاجتماع السياسي[1]"، وبعبارة أخرى، يعتبر"أرسطو" الإنسان حيوان اجتماعي أوبالأحرى مدني فبحكم من الغريزة يميل إلى العيش داخل هيئة اجتماعية منظمة مثل المدينة حيث تسود فيها السياسة لتنظم حياة الأفراد. ويعزز "ابن خلدون" هذه الفكرة حيث يرى هو كذلك أن الاجتماع ضروري بين بني البشر، وإذا وقع فلابدّ من وازع يدفع بعضهم عن بعض بما في طباعهم الحيوانية من عدوان وظلم، خاصة وأنّ الإنسان عنده لا يستطيع أن يعيش بدون مجتمع أو سلطة أي (حكم- سياسة) والتي تعمل على تنظيم حياته الاجتماعية وكذلك حمايته وتبعد عن المجتمع أيضا كل عوامل الفوضى والخراب، ومصطلح (السياسة) هذا ذو الأصل اليوناني، يعود مصدره إلى الكلمتين ﴿پوليتكا وپوليس﴾ إنّ الكلمة الأولى تعني كل الأمور السياسية أي كل ما يتصل بالمدينة، بالدولة وبالنظام السياسي، بينما الكلمة الثانية يقصد بها البلدة والمدينة، أي مكان تجمع الناس حيث يؤلفون نظام اجتماعي، أمّا في اللّغة العربية فيعود مصدر هذه الكلمة إلى فعل ساس ولما يقال ساس الوالي الراعية أي أمرها ونهاها، إنّ السياسة تشمل بصورة عامة، جميع الفنون التي تشبع حاجات المجتمع الإنساني[2]، واستنادا إلى ما جاءت به التعريفات المذكورة آنفا يمكن القول، أنّ كلمة السياسة سواء

كان ذلك عند الغرب أو العرب فهي تدل بصفة عامة على الحكم لهذا نجد هذا المصطلح مرتبط ارتباطا وثيقا بالدولة من جهة وكذلك المدينة من جهة أخرى خاصة وأنّ أولى المدن التي عرفتها المجتمعات الإنسانية في تاريخها الاجتماعي عند بداية وضعها لأسس التحضر كان يطلق عليها تسمية مدن الدولةCités état، وإذا رجعنا إلى التّاريخ الاجتماعي للمسار التطوري لظاهرة التحضر في المجتمع الجزائري بالمقارنة مع ما عرفته هذه الظاهرة في المجتمع البشري بحكم الانتماء إليه لكونه جزءا لا يتجزأ من المجتمع الإنساني، نجد هذا الأخير أي(مجتمعنا) هو أيضا كانت بداية التحضر فيه ذات طابع ريفي، لقد كانت الحياة الاجتماعية للجزائريين في هذه المرحلة، قائمة أساسا على التنظيم الاجتماعي القبلي المحكم، والذي كان يرتكز أساسه القاعدي على الأسرة الممتدة كأصغر وحدة اجتماعية ووصولا إلى القبيلة كأكبر وحدة اجتماعية، هذا ما جعل أهل الريف يتحكمون في مختلف شؤون الحياة الاجتماعية بما فيها الفيزيقية بإرساء قواعد تنظيمية لها وفقا لما كان يتطلبه نمط العيش آنذاك.

أوّلا - مراحل التحضر في الجزائر: نظراً لطبيعة تاريخ الجزائر، هذا التاريخ الحافل بالفترات الاستعمارية ذات الطابع الاستيطاني، أخذت ظاهرة التحضر في مجتمعنا اتجاهات مغايرة ومختلفة بتنوع واختلاف هذا الاستعمار وزمنه، ممّا افرز تحولات في بنية مدينة الجزائر وتنظيمها المجالي، حيث لوحظ أن في كل تدخل اجنبي لفترة معينة من التاريخ كان هناك تغييرا في النمط المعماري السّابق حاول من خلاله الاستجابة لحاجياته وأهدافه الاستراتيجية كترك بصماته شاهدا ماديا له على المجال، وبخصوص هذا الشأن، نتطرق إلى الفترات الهامة التي كان لها تأثيرا واضحا كما هو ملاحظ في واقعنا الاجتماعي من خلال بقايا بعض الشواهد المادية لها و التي كان تجسدها من خلال عمليات عمرانية كانت صغرى أحيانا وكبرى أحيانا أخرى عرفتها مدينة الجزائر عبر حقب زمنية متميزة، وكان ذلك بوجود شعوب من أصول وثقافات مختلفة ومن بين الذين وطأت أقدامهم هذه المدينة نذكر الفينيقيين -الرومان- العرب المسلمين- الأتراك وكذلك الفرنسيين علما بأن منهم من دخل غازيا مستعمرا ومنهم من دخل فاتحا مناصرا نقصد هنا الأتراك.

إنّ كل هؤلاء الشعوب خلفوا لنا أشكالا من التحضر، نقرأها من خلال النماذج المعمارية التي عرفتها مدينة الجزائر في مرحلة نموها الحضري والتي يمكن لنا تحديدها في ثلاثة مراحل وهي:

1- مرحلة الجزائر القديمة.

2- مرحلة الجزائر الفرنسية.

3- مرحلة الجزائر المستقلة.

ولقد تميزت كل مرحلة من هذه المراحل بخصائص وبدرجة نمو حضري معين من ناحية التنظيم الاجتماعي والمجالي كما يتضح لنا ذلك فيما يلي:

1- **مرحلة الجزائر القديمة**: بالنسبة لهذه المرحلة، نشير إلى أن العديد من المؤرخين قد اختلفت آراءهم حول تاريخ مدينة الجزائر التي كانت تعرف باسم "ايكوسيم" في العهد الفينيقي هذا الاسم "Icosim"الذي وجد منقوشا على الحجار والعملات القديمة قالوا أنه يعني جزيرة الشوك أو الطير أيضا، علما بأن هذه المدينة اندثرت و لم يعد أحدا يعرف عن تخطيطها العمراني إلاّ الشيء القليل.

إنّ الحديث عن مدينة " Icosim"يقودنا إلى الوجود الفينيقي بها، يعود أصل هذا الشعب إلى الجنوب اللّبناني وبفضل تجارتهم البحرية كانوا ينتقلون عبر العديد من مناطق العالم ومن بينها منطقة المغرب العربي التي أسسوا فيها بعض المراكز التجارية لتسهيل عملية التبادل التجاري مع الأهالي، هذا وبعدها وبالتحديد في سنة 803 قبل الميلاد استقر الفينيقيون في بلاد المغرب العربي وأسسوا دولتهم الجديدة قرطاجة، وقد ساهمت عدة عوامل في جعل هذه الدولة الغنية من أقوى الدول في المنطقة نذكر من هذه العوامل موقعها الاستراتيجي المحاد لشاطئ البحر بالإضافة إلى مهارة أهلها في ركوب البحار كما أنّ حسن التعامل مع الأهالي ساعدها على تجنب الصراع والمواجهة معهم، وفي هذا الصدد، نذكر أن الفينيقيين مدوا يد المساعدة للبربر من أجل الاندماج في دولتهم الجديدة وكان ذلك عن طريق المصاهرة أيضا، وكنتيجة لهذا الاحتكاك تأثر الأهالي بهذه الحضارة وحاولوا تأسيس دول تماثلها ومن بينهم "ماسينيسا" مالك نوميديا الذي تمكن من توسيع مملكته على كامل تراب ما يسمى حاليا بالجزائر، ولبناء مدينته فقد استعان من الناحية المعمارية بالمهندسين القرطاجيين، هذا و لم يستمر الوضع على حاله حيث وقعت خلافات بين الأهالي وقرطاجة، اغتنم عندها الرومان الذين كانت لهم أطماع وأهداف توسعية هذه الفرصة وساعدتهم قبائل البربر في تكسير قرطاجة التي كثيرا ما وقعت بينهما حروب انتهت بانتصار روما وهو الأمر الذي سهل لهذه الأخيرة غزو الدويلات الأمازيغية وقتل أهالها ونهب أراضيها والعمل على الاستيطان بها[3]، في حين ومع مجيء الرومان عرفت مدينة الجزائر باسم "ايكوزيوم "Icosium"ولقد اهتموا بالفن المعماري اهتماما كبيرا حيث أساسوا العديد من المدن مثل "تمقاد" التي هندستها المعمارية مزيج من الفن المعماري الروماني والإغريقي، علما بأنّ الأهالي قد شاركوا في بناء هذه المدن ممّا أدّى بهم فيما بعد بالتأثر بالفن المعماري الروماني. إنّ وجود هؤلاء الرومان امتد طويلاً في الجزائر، وحاولوا كثيرا بسط نفوذهم عن طريق اللّغة إلاّ أنهم لم يؤثروا على البربر كما أثر عليهم الفينيقيون حيث اعتبروهم الأهالي غزاة، وعقب ظهور الدعوة الإسلامية بمكة المكرمة والمدينة المنورة وموجة الفتوحات الإسلامية التي عرفتها الكثير من أقطار الأرض جاء دور فتح مدينة الجزائر لنشر الدعوة وكان ذلك في عهد ولاية "موسى بن نصير"، هذا وإلى جانب ما ذكر، فقد

حلت العمارة الإسلامية محل العمارة الفينيقية والرومانية حيث أسس المسلمون المساجد وقاموا بزخرفتها كما شيد الملوك قصورهم على غرار قصور منطقة المشرق العربي[4]. في أواخر القرن الثالث الهجري 296 آذن "زير بن مناد" لولده وولي عهده "بولوغين بن زيري" بتأسيس المدن الجزائرية الثلاثة -الجزائر - المدية -مليانة، وإثر تأسيسها أي (مدينة الجزائر) قد نسبت إلى قبيلة بربرية التي كانت تنزل بجوارها تدعى بقبيلة "مزغنة الصنهاجة" وبعد ذلك تعاقب عليها الحماديون، الحفصيون والزيانيون بعدها بدأت المدينة تتعرض إلى هجمات متكررة من قبل الاسبان في أواخر القرن العاشر الهجري واضطر "سالم التومي شيخ الثعالبة"، إلى الاستنجاد بالأخوين "عروج وخير الدين بربروس" وهذا لمواجهة الاسبان والدفاع عن مدينة الجزائر.

وهكذا بدأت الجزائر تستقبل أفواجا من الأتراك المهاجرين إليها بالإضافة إلى مجموعة من أفواج المسلمين العائدين من الأندلس، كما قدم إليها عددا أخر من سكان شرق البلاد كسكان قبيلة "تكسانا" من مدينة جيجل وأدت هذه الهجرة إلى الزيادة في الضغط السكاني داخل المدينة امتد إلى أسوارها، حيث ارتفع عدد سكانها من 20 ألف نسمة سنة 1450م إلى 30 ألف نسمة سنة 1517م، ومن 60 ألف نسمة سنة 1580م إلى 100 ألف نسمة سنة 1634م، ولتخفيف الضغط عليها، شرع "عروج "في توسيع المدينة من الجهات العليا للقصبة وبذلك تشكلت إضافة إلى قصبة"بولوعين"، قصبة "عروج" وبالتّالي أصبحت المدينة تحت سلطة الإخوة "بربروس[5]"، إنّ ما ميز الوجود التركي بمدينة الجزائر من الناحية العمرانية، هو الاهتمام بتوسيع المدن ومجالها الحضري وتظهر هذه العملية خاصة في مدينتي الجزائر وقسنطينة. وأهمّ ما ميز المدينة التركية هو عجزها على القيام بإدماج أفراد المجتمع مع بعضهم العض وخلق نوع من الثقافة المشتركة بينهم، حيث نجد هذه المدينة منقسمة إلى أحياء خاصة ومميزة بعاداتها وتقاليدها مثل حي اليهود -حي البسكريين- حي الميزابيين[6].

ب - مرحلة الجزائر الفرنسية: إنّ الغزو الفرنسي الذي تعرضت له الجزائر والذي بدأت تتجسد ملامحه بعد الثورة الصناعية، تختلف ملامحه إلى حد ما عن ذلك الذي تعرضت له باقي الدول التي كانت تحت سيطرته.

تعد الجزائر من الدول القليلة في إفريقيا التي تعرضت إلى استعمار استيطاني محاولا أن يجعل منها ولاية من ولاياته وذلك بدمج الجزائر كلها أرضا وشعبا من خلال التأكيد على تطبيق فكرة هوية الجزائر الفرنسية وهو الأمر الذي جعل أغلبية أهالي مدينة الجزائر يلجؤون إلى الأرياف هروبا من المستعمر والسكان الفرنسيين الجدد الذين بدؤوا يمارسون عليهم سياسة التشريد والطرد ونزع

الملكيات، وهناك من الأهالي أيضا من لجأ إلى الهجرة نحو خارج البلاد خاصة إلى البلدان الشقيقة كالمغرب تونس وفي بعض الأحيان إلى دول المشرق علما بأن الهدف من هذا التصرف لم ينحصر في البحث عن الأمن والاستقرار فحسب ولكن امتد ليشمل فكرة العمل من أجل تدعيم الكفاح بالأموال والذخيرة من خارج البلاد وبهذا تقلص عدد سكان الجزائر إلى تسعة آلاف بعدما كان يقيم فيها ثلاثون ألاف نسمة خلال فترة الاحتلال[7]، هذا ومن أجل أسباب أمنية ورفاهية أخذت السلطات العسكرية إجراءات من أجل تأمين أحسن لجنودها كانت على حساب أحياء القصبة السفلى التي تعرضت لتغيرات كبيرة أثرت على وجهتها البحرية حيث قامت بتوسيع بعض المداخل كشارع "باب عزون" وشارع "البحرية" وان ذلك بتهديم بعض البنايات من أجل توسيع الطرق وبقيت البنايات القديمة غير العالية والمكعبة الشكل ميزة لعمران المدينة.

وفي سنة 1841 بدأت الهجرة الكبيرة للأوربيين تتدفقعلى مدينة الجزائر وكانت المدن الأماكن المفضلة لهم،لأنّهم يجدون فيها ظروف عيش قريبة من التي كانت في بلادهم الأصلية[8] ممّا أدى بالسلطات الفرنسية إلى القيام ببناء بعض الأحياء وتوسيع البعضالآخرمنها كحي "لبحرية"، حي "باب الوادي" وحي "بولوغين" وعندها تخلىالأوروبيون على المدينة القديمةالقصبة، وهذا للإقامة في مدينتهم الجديدة ومنه ظهر إلى جانب المدينة القديمة والتي كان الأغلبية من سكانها مسلمين، المدينة الأوروبية التي تطورت وجلبت إليها مختلف الشعوب الأوروبية وكونت مزيجا غريبا من السكان والذي برزت معه ظاهرة التمايز الاجتماعي والمجالي بالنسبة للسكان على مستوى مدينة الجزائر. هذا وقد عرف المجتمع الجزائري أيضا في هذه الحقبة التاريخية ظاهرة الترييف والمتمثلة في تراجع العمران الحضري لصالح العمران الريفي بسبب الاحتلال وبالتّالي اكتسى عمرانه طابعا ريفيا وهناك من كان يصفه بعمران المقاومة والذي يتجلى في مقاومة جهادية مسلحة،مقاومة ثقافية، مقاومة اقتصادية ومقاومة عمرانية والتي انعكست جميعا على طبيعة العمران وعلى ظاهرة التحضر[9]. فمن الناحية المعمارية فقد تدهورت الثقافة المعمارية التقليدية تدهورا كبيرا بسبب ظروف المعيشة الصعبة للجزائريين التي لم تكن تساعدهم على الاستقرار والتعمير بعدما انتزعت منهم أراضيهم، فالهجرة الداخلية للسكان الناتجة عن الحرب وكذا نمط العيش البدوي جعلا عددا معتبرا من السكان في حالة ترحل دائم بحثا عن سبل العيش والأمان.

إنّه وبتصاعد الضغط الاجتماعي على الأهالي في الأرياف جراء سياسة حرق الأراضي ومطاردة الفرنسيين لهم في الجبال اضطر هؤلاء إلى تغير اتجاه هجرتهم بالتروح إلى المدن وكانت إقامتهم بها بداية لظهور بيوت القصدير وانتشارها[10]، وأمام التطور الفوضوي الذي عرفته مدينة الجزائر أنشأت السلطات الفرنسية في سنـــــــة 1933 مصلحة خاصة كانت مأموريتها انجاز مخطط لمدينة الجزائر،

وبالتّالي بدأت الدراسات حول السكن كان ذلك في سنوات تراوحت مابين سنـــــــة 1937/ 1945 وسنـــــــة 1949 إلى غاية سنـــــــة 1954 حيث أقيمت ببلدية الجزائر وكالة خاصة لتنظيم المدن ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى أن هذه الدراسات حققت نجاحا في معركة البناء، إذ قامت بلدية الجزائر بإنجاز عدة أحياء نذكر منها "ديار المحصول" و"ديار السعادة" وشملت 2300 وحدة سكنية موجهة لإسكان 15000 شخص، وعلى إثر ذلك تم إنشاء مجموعة من المؤسسات كانت مهمتها انجاز المساكن وتنظيم المدينة والنهوض بها حضريا ومن هذه المؤسسات، المؤسسة العقارية الجزائرية والتي قدمت برنامجا لإسكان عمال المسلمين، نذكر هنا أنّ الثورة الجزائرية دفعت بالفرنسيين إلى الانجاز السريع للمساكن والدّليل على ذلك حي "مناخ فرنسا" الذي تم انجازه سنـــــــة 1957 والذي يحتوي على 4500 مسكن لإسكان حوالي 30000 شخص.

تعتبر السنوات الأخيرة الثلاث للجزائر المستعمرة فترة ذهبية فمعهم عرفت ظاهرة التحضر انتعاشا وعرف المجتمع الجزائري نموا حضريا لم يعهد مثله من قبل خاصة مع ما جاءت به فرنسا وأعدته من مشاريع كمشروع قسنطينة 58 مثلا، والذي كانت تهدف من خلاله إلى تحقيق هدفين أساسين وهما:

1- العمل على بعث مشاريع سكنية مكثفة مع السرعة في الانجاز لحل أزمة السكن ويتم هذا على المدى القصير.

2- بعث سياسة جديدة لتهيئة الأراضي التي تلعب فيها المدينة والصناعة والزراعة أيضا الدور الأساسي ويتم هذا على المدى الطويل.

لقد حضي هذا المشروع المذكور أعلاه بالأولوية لكونه يرمي إلى إسكان ما يقرب مليون شخص في فترة 5 سنـــــــوات، ففي سنـــــــة 1958 تم انجاز 18000 مسكن على شكل أحياء سكنية كبرى بضواحي المدن الكبرى (الجزائر - قسنطينة - عنابة) مع إدخال عمليات تنظيم لتهيئة نسيجها الحضري والنهوض به[11].

وإذا كانت نوايا فرنسا من خلال ما سطرته من برامج في مشروع قسنطينة هو الوصول إلى تحقيق التنمية الشاملة للمجتمع الجزائري وذلك بتوفير مستوى معيشي أفضل لأكبر عدد ممكن من الجزائريين، يمكن القول وبالاستناد إلى الواقع الاجتماعي بأنّ هذا المشروع لم يحقق أهدافه كلية من النّاحية التطبيقية ويتأكد هذا من خلال ما خلفه من آثار ملحوظة في مختلف الميادين، ففي ميدان التعمير إطار مبني غير كامل أمّا في ميدان الاقتصاد قاعدة تصنيع لم تقام بعد، هذا إلى جانب العديد من

الدراسات مع مخططات وملفات لم تستغل، علما بأن بعد الاستقلال استوحت منها الجزائر بعض الجوانب أدرجتها في سياستها التنموية في مرحلة انطلاقها الأولى.

ج - مرحلة الجزائر المستقلة: إنّ ما ميز ظاهرة التحضر والنّمو الحضري في هذه المرحلة هو ارتباطها الوثيق بالاستقلال الوطني وسياسة مركزية التصنيع، حيث بعدهما عرفت مدينة الجزائر توافد أهال الأرياف إليها بشكل واسع وتدفقاً هائلاً من العائلات القادمة من المحتشدات والمناطق المحرمة والتي عملت على احتلال المساكن الشّاغرة التي خلفها المعمر من ورائه بعد مغادرته لأرض الجزائر وهذا بحثا عن ظروف معيشة أفضل[12].

إنّ انتقال هذه الفئة من العائلات والمميزة بثقافتها الخاصة إلى المدينة وإقامتها في مختلف مراكزها الحضرية والعمل بها، خلف انفجارا عمرانيا عشوائيا ترتبت عنه عدة مشاكل اجتماعية خاصة تلك المتعلقة بالسكن وأنماط استهلاك المجال الحضري[13].

فبسبب التضامن والتماسك الاجتماعي القوي الذي كانسائدا بين هذه العائلات ورغبة الشعب في تعويض ما فقده أثناء الثورة، وصل بهم الأمر جميعا إلى إشراك عدة أسر في مسكن أوفي بناية أو حتى في شقة واحدة في بعض الحالات، وكان هذا بمعدل شخصين أو ثلاثة أشخاص في مكان واحد من المغادرين كما أن الشقة ذات الثلاث غرف أصبحت تأوي من 12 إلى 16 شخصاً[14].

وكنتيجة للاستقلال الاقتصادي الذي أصبحت هذه العائلات تتمتع به بسبب تقسيم العمل السائد في الوسط الحضري بالإضافة إلى ما أحدثه التعليم من تغير في الذهنيات بدأ يظهر لديها الميل لتكوين أسرة نووية هذا من جهة ورغبة الاستقلال في المسكن من جهة أخرى.

أمام هذه الطموحات والنظرة الجديدة للحياة الأسرية ونمط العيش بالإضافة إلى الانفجار الديمغرافي، تزايد الطلب على المساكن وبالتالي تزايدت حدة أزمة السكن التي كانت قد عرفتها مدينة الجزائر من قبل مع انتشار أحياء من بيوت القصدير والصفيح.

ومع عجز الدولة عن الاستجابة لهذه الطلبات، راحت هذه العائلات تتبنى أنماط استهلاك جديدة للمجال لم تكن مألوفة لديها من قبل كاقتسام المطبخ والفناء وغير ذلك من العناصر المكونة للمجال السكني خاصة لما أخذت ا

لخلافات والنزعات تتزايد بين أفرادها.

ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى أن هذه المشاكل كلها أثرت على الجانب الايكولوجي للمدينة بسبب عدم قدرة هذه الأخيرة على استيعاب سكانها بالإضافة إلى عدم مواكبة تطور مختلف الأنظمة الحضرية السّائدة فيها مع التطور الحضري السريع الذي عرفته خاصة في الآونة الأخيرة، وبروز كل هذه الظواهر المذكورة بدأت المدينة تعرف اختلالا في تنظيم مجالها الحضري انعكس سلبا على نسيجها

العمراني حيث أدى إلى بروز فوضى عمرانية استلزمت ضرورة التفطن إليها مع التفكير في إيجاد حل لها قبل تفاقمها.

وبناءً عليه، جاء تدخل الدولة واضحا في هذا الشأن حيث اتخذت جملة من إجراءات هامة تمثلت في عملية تهديم البيوت القصديرية وترحيل سكانها إلى مناطقهم الأصلية وإعادة إسكان بعضهم طبقا للشروط التي سطرتها الجهات المعنية بالأمر، هذا بالإضافة إلى محاولة معالجة المشكلات القانونية والفنية للعمران غير المخطط وكان ذلك كتمهيد لإدماجه في النسيج العمراني الحضري ورغم التوقعات التي وضعتها الدولة لانجاز 10.000 مسكن سنويا تم التوصل إلى 4600 فقط أي ما يعادل نسبة 46% وهذا ما يعكس لنا حقيقة اجتماعية مفادها أنّ الدولة عاجزة على توفير مسكن لكل فرد نظرا لعدم التوازن بين الإمكانيات الحقيقية التي تتوفر عليها البلاد والطلب المتزايد على هذا المنتوج الأساسي والمتمثل في السّكن.

ولتخفيف العبء عليها أي (على الدولة)، لا يفوتنا أن نشير هنا إلى أنّ في هذه الفترة عرف المجتمع المدني تحولا هامّاً في قوانين السياسات العمرانية حيث تركت الدولة حرية كبيرة للمبادرات الفردية التي تجسدت من خلال ظهور فكرة مشاركة المواطنين في سياسة السكن وضرورة المساهمة في حل الأزمة وهكذا ظهر البناء الذاتي بتدعيم معتبر من طرف الدولة هذا إلى جانب عمليات أخرى في هذا المجال، ومن جهة أخرى فإنّ عملية التنازل عن أملاك الدولة بالبيع لصالح المواطنين والتي انطلقت سنة 1982 في إطارها تم بيع 250.000 مسكن، جعلتها تنقص من مصارف الصيانة والتسيير لهذه الأملاك العامة وبالتّالي تهدف إلى تحسس المواطن بالمسؤولية عندما يصبح مالكا لمسكنه[15]، أمّا خلال العشرية الأخيرة ومع ما خلفته حوادث أكتوبر على الصعيد الاجتماعي عرفت مدينة الجزائر على غرار المدن الأخرى قدوم موجات كبيرة ومتتالية من النازحين الريفيين من أهالي المناطق الجبلية بحثا عن الأمن والاستقرار، وبهذا أصبح معدل التحضر الذي سجلته هذه المرحلة معادلا لذلك الذي سجل في الفترة الأولى من الاستقلال وفترة التنمية الصناعية وعلى إثره نلاحظ أن من أهم الإجراءات العمرانية الحضرية التي أخذت في ميدان الإسكان والتعمير قرار إشراك القطاع الخاص في التنمية العقارية وكان هذا ابتداءً من سنـــــة 1989[16].

ثانياً- التحضـــــر وعلاقتـــه بأنمـــــاط البنـــــاء في المجتمـــع الجزائـــري: لقد تطورت نماذج البناء أو بالأحرى المساكن مع تطور الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وجاءت متنوعة بتنوع هذه الأخيرة، ويمكن التعبير عن هذا التنوع بالتأثير الموجود بين المجتمع والبناء أو بالأحرى العمارة فهي تعد بمثابة المرآة العاكسة لفكر الإنسان ماضيه وحاضره ومستقبله من خلال ما تحتوي عليه من حلول وأشكال بالإضافة إلى رموز معمارية وهندسية لتلبية الحاجات الإنسانية التي

تقتضيها حاجة الاجتماع الحضري بمختلف أبعادها. وعليهف العمارة هي ظاهرة اجتماعية مركبة من متطلبات الجماعة وإرادة الفنان، وفي جميع الأحوال الفنان ملزم بإقناع الجماعة بقبول عمله المبدع وعملية البلوغ هي جزء من ممارسة الجماعة الثقافية خاصة وأنّ تاريخيا لم يكن الإنتاج الفني إنتاجا فرديا بل جماعيا، فالمجتمع الإنساني كان دائما بانيا لصروح معمارية تطلبت ومازالت تتطلب تعاونا أقصى بين مختلف أفراد الجماعة[17].

إنّ العمارة في الجزائر هي الأخرى ظاهرة اجتماعية جذورها جد قديمة ضاربة في أعماق التاريخ ولها صلة مع الحضارات القديمة الرومانية والإسلامية يعود الفضل لها في إرساء القواعد الأولى للتحضر بغض النظر في كيفية تواجدهما بالمجتمع الجزائري فمن الأولى ورثنا أثارا جمالية نراها في تيبازة ومن الثانية ورثنا مدنا حيوية حتى ولو كانت تطرح مشاكل.

لقد عرف المجتمع الجزائري كباقي المجتمعات العربية أنماطا متنوعة من الأبنية السكنية في مساره الحضري شبيهة بالتي عرفتها هذه الأخيرة بحكم الانتماء الجغرافي والثقافة المشتركة بينهم، ومن بين هذه الأنماط نذكر نمط البناء العربي التقليدي نمط البناء الأوربي الحديث، نمط بناء الأكواخ ونمط بناء التجمعات السكنية علما بأنّ لكل نمط من هذه الأنماط المذكورة خصائصه المعمارية كما سنبينه فيما يلي:

1- **نمط البناء العربي التقليدي**: إن هذا النمط من البناء يوجد في النواة الحضرية التاريخية وغالبا ما تكون المباني فيه مكونة من طابقين أو ثلاثة طوابق كما تفصل بين مبانيه شوارع وأزقة ضيقة ومنعرجة، وتمتاز وحداته السكنية بمخطط هندسي وتصميم معماري ذو صورة مألوفة حيث نجدها مجسدة في منزل مثني على نفسه، مفتوح في الداخل حول مساحة مستطيلة وسط المنزل يطلق عليها "وسط الدار" وهو فناء داخلي تحيط به بيوت علما بأن وظيفة هذه الساحة لا تتوقف على توفير الإضاءة والتهوية فحسب بل تتعدها إلى تنظيم الحياة العائلية، بينما واجهته تتميز بقلة النوافذ زيادة على ضيقها خاصة تلك المطلة على الشوارع.

2- **نمط البناء الأوربي الحديث**:ظهر هذا النمط من البناء مع وجود الاستعمار الفرنسي في الجزائر وهو يدخل في إطار البناء الحديث، جاء على شكل عمارات سكنية مكونة من طابقين أو ثلاثة هي الأخرى وتمتاز وحداته السكنية المتمثلة في الشقق بمخطط هندسي وتصميم معماري مستوحى من الثقافة الغربية والذي لم يكون معروفا في مباني المدن القديمة كما أنه يمتاز بكل شروط التهوية، الإنارة وتتوفر فيه جملة من المرافق الخدماتية التي تتطلبها الحياة الحضرية.

3- **نمط بناء الأكواخ**:ظهر هذا النمط من البناء في البيئة الحضرية للمدينة الجزائرية كنتيجة لأزمة السكن التي خلفها التدفق الهائل للزاحفين من الأرياف عليها لدرجة جعلتها عاجزة عن التكفل بهم

نظرا لعدم قدرتها على توفير المتطلبات التي تضمن لهم العيش الكريم خاصة تلك المتمثلة في الإيواء، و يظهر هذا النمط من البناءعلى شكل بؤر منتشرة في. الهوامش والمنحدرات نجدها مبنية من الطوب والأحجار ومغطاة بسقف من الصفيح ومن ميزاتها الأساسية أنها غير مخططة مفتقرة للمرافق الضرورية للحياة الحضرية وتزداد كثافة هذا النمط من البناء في المدن المركزية كما أننا نجده كثير الانتشار في المنحدرات والهوامش.

4- **نمط بناء التجمعات السكنية**:ظهر هذا النمط من البناء في البيئة الحضرية للمدينة الجزائرية في العصر الحديث وانشر بكثرة خلال السبعينات، تشكل مباني هذا النمط مناطق مميزة من الناحية المعمارية حيث تمثل سمة بارزة للعمران الحالي ونجدها تزداد كثافة وامتدادا كلما ابتعدنا عن المركز في مناطق عمرانية حديثة[17].

وفي الأخير نشير إلى أنّ أنماط البناء أو بالأحرى الإسكان التي يعرفها مجتمعنا اليوم تعد أكثر تنوعا وتعقيدا ظهرت على إثر تحولات متعددة مادية وثقافية عرفها المجتمع مؤخرا وهذا تلبية لحاجات أفراده الاجتماعية المتغيرة باستمرار.

فمن خلال الدراسات العالمية التي عقدت حول هذه المسألة والمتعلقة بأنماط البناء تبين أن كل المجتمعات عرفت ظاهرة تنوع النماذج المعمارية الحضرية للبناءات الذاتية، فمن المعروف أن كل الشعوب التي أنتجت عمرانا أو أنماطا معمارية قد وضعت خطوطها المضلة والمميزة لها عن الآخرين والمستقاة من ثقافتها الأم حارسة في ذلك على جعلها تتلاءم وخصوصيات جذور انتماءها الثقافي.

لو أخذنا كمثال نموذج المسكن الحضري في المجتمع الإسلامي وجوبنا أقطار هذا الأخير، نلاحظ أنّ هناك الكثير من المقاييس المشتركة في صورة ومخطط المسكن العربي حيث نجده في الغالب عبارة عن مسكن مغلق على نفسه وفتوح في الداخل حول مساحة المجال المسمى بـــ "وسط الدار" علما بأن هذا النموذج نجده أيضا مقلوبا نحو الداخل بدون واجهة، كما أنّ النافذات الخارجية فيه مستورة بالحديد، كما لا يفوتنا أن نشير هنا إلى أن النموذج الأكثر رواجا في المجتمع الإسلامي هو ذلك البيت المسمى"بالبيت التقليدي العربي" والذي يحتوي على الساحة المركزية، ومع التطور الاقتصادي ظهرت نماذج جديدة للبناء على شكل عمارات ذات طابقين أو ثلاثة طوابق.

أمّا بالنسبة لأسلوب البناء في هذا المجتمع الإسلامي فإنّ بقايا الآثار من خلال الواقع المعاش، يبين لنا أنه يتغير من مدينة لأخرى ومن عهد لآخر مع العلم أن نماذج المساحات المغلقة بقيت موجودة دائما في كل مدينة عربية وتنظيمها كان يتم دائما حسب مبادئ ثقافية متشابهة، لأن الحضارة العربية الإسلامية هي التي أعدت هذه النماذج الحضرية وهي التي سمحت لها بالتطور وفرض نفسها بشكل تقريبا مستمر.

إنّ الانتقال من البناء التقليدي والمساكن المبنية بالقالب إلى المسكن التقني تعد مرحلة طبيعية في عملية تطور البناء علما بأنها لم تحدث فقط في الدول الغربية وإنّما عرفتها أيضا الكثير من المجتمعات العربية الإسلامية، إذ برز فيها من خلال تبنيها لهذه العملية إلى جانب المساكن الفردية العمارات الجماعية والمجموعات السكنية الكبيرة وهي ظاهرة حضرية جديدة عرفتها المجتمعات الغربية من قبل وانتشارها السريع بها أثار قلق الرأي العام خاصة بفرنسا، لاعتبار نمط هذا البناء لا يتماشى مع النمط المعيشي لسكانها[18]،هذا النّمو العمراني قد أثر تأثيرا بالغا على معظم المدن العربية في المجتمع الإسلامي أيضا من حيث طابعها المعماري خاصة بعد ظهور المساكن المبنية ذاتيا، إذ بدأ الاختلاف يظهر بصورة جلية بين كل تلك المباني التي بنيت سابقا وهي المباني التقليدية والمباني التي ظهرت حديثا والتي اتخذ فيها أصحابها أنماطا معمارية جديدة بعيدة كل البعد عن ثقافتهم.

الخاتمة:

إذا عدنا إلى تاريخ المجتمعات الإنسانية لتحديد طبيعة الظاهرة الحضرية والنمو الحضري سوسيولوجيا، نستخلص ثلاثة تفسيرات لتحديد ميلادها وتتمثل فيما يلي:ميلاد مرتبط بالإنسان والاستجابة لحاجة البقاء لديه، وتجسد ذلك في المغارة وغيرها.

1- ميلاد مرتبط باستقرار الإنسان الناتج عن زيادة فعالية وتجسيد رغبة الحاجة للمأوى في مجال محدد جغرافيا خاصة مع اكتشاف العمل الزراعي.

2- ميلاد مرتبط بإخضاع البناء لمقاييس علمية مدروسة والذي تولد عنه المشروع المعماري الحضري الذي تعود جذوره الأصلية إلى المرحلتين السابقتين[19].

وعليه نقول، إذا كانت عملية النمو الحضري من العمليات التي تعتمد على إمكانيات المجتمع والقيم الاجتماعية السائدة فيه وأفكار أبنائه، فهي تحتاج حتما إلى التكيف والتأقلم مع الأوضاع الحضرية بعناصرها الفيزيقية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، لهذا تبقى مسألة تتبع مسار مراحل النمو الحضري مسألة جوهرية لفهم التغيرات الاجتماعية والمجالية السريعة التي يعرفها المجتمع في الوقت الراهن.

قائمة المراجع:

1- محمد طه بدوى،**أصول علم السياسة**، المكتبة المصرية الحديثة للطباعة والنشر، مصر، 1967، ص10.

2- محمد برجاوي،**علم السياسة**، منشورات عويدات، بيروت، السنة غير مذكورة، ص6.

3- محمد الطمار، **الروابط التاريخية بين الجزائر والخارج**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1985، ص52.

4- عبد القادر حليمي،**أصول النشأة لمدينة الجزائر**، مجلة الأصالة، العدد الثامن جويلية، العربية السعودية، 1972، ص121.

5- عدنان عظيمة،**مدينة وتاريخ**، مجلة الفيصل، العدد 101 أوت 1985، العربية السعودية، ص101.

6- محمد مبارك الميلي: "**تاريخ الجزائر القديم والحديث**"، الجزء الثالث، مكتبة النهضة، الجزائر، 1963، ص57.

7- Farouk Benatia, Alger, **Agrégat ou Cité**, SNED, Alger 1980, Page 24.

8- Farouk Benatia, Ibid, Page 276 .

9- محمد بومخلوف،**التحضر**، مرجع سابق الذكر، ص119.

10- محمد السويدي،**مقدمة في دراسة المجتمع الجزائري**: "تحليل سوسيولوجي لأهم مظاهر التفكير في المجتمع الجزائري المعاصر"، ديوان المطبوعات الجامعية، السنة غير مذكورة، ص88.

11- Jean Jacques Delluz "Aperçu Critique Sur l'Architecture l'Urbanisme" In Revue d'Architecture et d'Urbanisme, Edition , Epau El Harrach Alger 1981 Page 169

12 - Farouk Benatia, OP.CIT, Page 321

13- محمد بومخلوف، **التحضر**، مرجع سابق الذكر، ص128.

14- دويبي أمينة،**مدينة الجزائر من منظور سكانها**،مذكرة ماجستير، قسم علم الاجتماع، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الجزائر، الجزائر، 2005/2004، ص122.

15- نعيمة مدان،**التحضر وظهور الأسرة النووية في المجتمع الجزائري**-دراسة ميدانية لبلدية يسر-، 2008/2007،ص20.

16- فاروق بعلي،**التحضر والعلاقات الاجتماعية للأسرة النازحة**، ماجستير في علم الاجتماع الحضري- 2006/2005،ص67.

17- أكرم جاسم محمد العكام،**الخطاب العربي الإسلامي والغربي**،دراسة مقارنة في مجلة المدينة والإنسان، من وقائع المؤتمر القطري الأول للهندسة المعمارية، 2001، ص10.

18 -André Raymond – **Grandes Villes Arabes à l'Epoque Ottomane**,- Edition, Sind bad, Paris 1985, P 278.

19- Asia Samia Bouadjadja,**Histoire d'Une Discipline: L'Architecture** –In Revue Sciences Humaines, Numéro 21, juin 2004, P 53/58.